ســـبيل الصحافة

الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

فرغت من عملى ، فوضعت القلم ، ونهضت عن المكتب وبحت أتمشى ، فلقينى زميل فسألنى :

« كيف ترى الخبر الفلانى ؟ »

قلت : « عظيم . وقد جعلته موضوع مقالى اليوم »

قال : « أنا جئت به »

قلت : « أهنئك . فمن أعطاكه ؟ »

قال : « قد والله سرقته ! »

فضحكت وقلت : « اللص الشريف ! »

وهممت بالانصراف عنه ، بعد أن أثنيت عليه بالذى هو أهله . فقال : « بودى أن أعرف رأى الوزير فيما صنعتُ ، وما أظن إلا أنه مغيظ محنق »

فقلت : « إن الخبر للنشر على كل حال ، والخلاف بينك وبين الوزير على موعد النشر ، وليس هذا الخلاف بالذى يثير الغضب »

وأقبل فى هذه اللحظة زميل آخر فألقيت إليه خلاصة الحديث وقلت :

إن الجريمة ليست فى ارتكابها ، بل فى افتضاحها . ونحن اليوم نحرم السرقة ، وتقول قوانيننا إنها محظورة ، وإن عقابها كيت وكيت ، ولكن (ليكرغ) فى إسبارطة القديمة كان يذهب مذهباً آخر فيقول بأن لك أن تسرق على ألا ينكشف أمرك ، فإذا انكشف كان عقابك صارماً . والنتيجة واحدة ، فان السارق الذى يستطيع أن يستر فعلته لا يصيبه شىء ، وما يعاقب إلا الذى يعجز عن إخفاء ما صنع ، ويثبت عليه ارتكاب الفعل

ووجه آخر للمسألة : زميلنا هذا قد سرق شيئاً — لم يسرق خبزاً ليأكل ، ولا مالاً لينفق على نفسه وعلى عياله ، أو ليوسع رزقه ، ولكنه مع ذلك سرق شيئاً فى سبيل رزقه ، فإن رزقه يتطلب منه أن يوافى الجريدة بطائفة صالحة من الأخبار التى تعنى القراء ، وصاحب الجريدة لا يكلفه السرقة ، ولو فعل لكان هذا منه شططاً غير مقبول ، وأمراً لا يطاع ، ولكن الزميل مع ذلك رأى أن قيامه بواجبه يبيح له استقاء الأخبار بهذه الطريقة العوجاء ، وهو — كما تعلم — سنىٌّ متدين ، غير أن كونه سنيًّا ومتديناً لم يعنه أن يقدم على سرقة صريحة لا سبيل إلى المكابرة فيها ، من أجل الرزق . ولو أنه كان قد سرق رغيفاً أو بيضة لكان جزاؤه ما يبينه قانون العقوبات . وعذر الذى يسرق الرغيف ليسكت « معدة ثعلبها لاحسٌ ، وتارة أرنبها ضاغبُ » كما يقول ابن الرومى فى قصيدته المشهورة لابن الحاجب ، أوضح ممن يسرق ولا جوع به ولا خلة ، وإنما يريد أن يستديم الرضى من صاحب عمله . ولو جئت بسارق الرغيف ، وسارق المذكرة من الوزير أو أعوانه وسقتهما إلى القضاء ، لكان للمحقق أن يحكم على سارق الرغيف ، وأن يبرئ سارق المذكرة . وقد يرى القاضى أن الفاقة « ظرف مخفف » — كما يقول رجال القانون — ولكن لن يكون عنده « ظرفاً مبرئاً »

وسارق المذكرة يستطيع وهو آمن أن يباهى بعمله ، وأن يتخذ من قدرته على مثله شهادة مزكية له ، ووسيلة للرفع من شأنه . وكل صاحب جريدة يسمع بجريمته يتمنى لو أن أخانا المجرم كان يعمل له ، بل يتمنى لو كان كل من يعمل فى جريدته على مثاله . ولكن سارق الرغيف بماذا يباهى ؟ أبفقره ؟ أم بعجزه عن الكسب ؟ أم بما وصمه به القانون ؟ أم بما نزل به من السجن ؟ وكل صاحب عمل يزهد فيه ويخاف منه وينفى أن يكون عنده مثله ؛ وقد يدركه عليه العطف ، ولكنه لا يطمئن إليه . وإنه ليعلم أنه ما أغراه بالسرقة إلا الجوع وقلة الحيلة وانقطاع الوسيلة ؛ وإنه ما كان ليفعل ما فعل لولا ذاك ؛ ولكن الشكوك مع ذلك تظل تساوره وتقاوم شعور العطف وتغالب رحمة القلب ، بل منطق العقل

وأحسب أن الصحافة مدرسة لتعليم هذا الضرب من السرقة ولست أعرف صحفيًّا واحداً أتيحت له فرصة سرقة وأحجم عنها أو تردد . وما أُبرئ نفسى ولا أنا أستثنيها . هذا وليس عملى فى الصحافة — ولا كان قط — أن أستقى الأخبار ، ولكن

كل عمل فى الصحافة رهن بالأخبار، فصلته بها أوثق مما يبدو للمرء ، وإن خيلت غير ذلك . وإنك لترى الصحفى « حنبليًا » فى كل شىء إلا حين يحتاج إلى الوقوف على خبر ، وإذا بالذمة تتسع ، وإذا كل شىء جائز فى سبيل الوصول إلى هـذا المستور أو المكتوم ؛ ثم لا أسف ولا ندم ولا توبة . وأكبر الظن أن تسقط الأخبار فى الطباع ، وأن الإنسان فضولى بفطرته . فإذا كان هـذا هكذا فإن الصحافة لا تصنع أكثر من تنظيم الأمر وتوجيهه وجهـة المصلحة العامة لخير الجماعة . والصحافة من ثمرات الحضارة، فهى تصنع كالحضارة — أعنى أنها تعمد إلى الغرائز والفطر الساذجة فتصقلها وتهذبها وتنظمها وتجريها فى مجار معينة ، فيصلح أمر الجماعة ويستقيم حالها . مثال ذلك أن الرجل كان يخطف المرأة التى كانت تروقه أو يسبيها، ثم يحتازها ما دام راغباً فيها ويحارب دونها ؛ وهو الآن يتزوجها ، ولا يحتاج إلى الخطف أو الحرب دونها ، وإن كان ربما احتاج أن يعانى متاعب المنافسة من الخاطبين ، أو الراغبين فيها غيره ومثاله أيضاً أن الأثرة والأنانية قد اتخذا مظهر الوطنية أو القومية ، ولم تذهب الأثرة ولم يبرأ منها الفرد ، ولكن المدنية استطاعت أن تنتفع بروحها فى الفرد وتسخرها لخير الجماعة

كذلك تفعل الصحافة، حين تستغل فضول الإنسان فتتولى جمع ما يعنيه وتنشره على الناس. وقد خرج الأمر عن أصـله ، حتى لصار يبدو كأنه منقطع الصلة به . ومن الذى يجرؤ أن يقول : إن الصحافة لا هم لها إلا إرضاء فضول الإنسان بعد أن أصبحت تسمى « السلطة الرابعة ؟ » . ومن ذا الذى يذمها من أجل أنها تصل إلى أخبارها بما يسع رجالها من حيل ، ويدخل فى طوقهم من وسائل وإن كان بينها السرقة ، بل شراء الذمم بكل ما تشترى به من طيب وذميم — أى بالخداع ، والملق ، والمدح ، والصداقة ، وتبادل المنافع ، لا بالمال وحده كما قد يتوهم البعض ، فإن الرشوة الصريحة وسيلة يندر الالتجاء إليها ...

وهكذا جعلت الصحافة من السرقة عملاً محموداً ، ومن مرتكبها لصًّا شريفاً ! ولا عجب فإن خدمة الأمة تكلف أبناءها تعاطى ما يعده العرف رذائل وآثاماً ، وتحمد منهم ذلك ، وتجزيهم عليه أحسن الجزاء

ابراهيم عبد القادر المازنى

من رحلة الحج

هأنذا أهبط إلى برحى العاجى مع الشتاء ، فى الوقت الذى يهبط فيه «الأب نويل» مع عيد الميلاد . إنى أرى لحيته الطويلة البيضاء تمتد لتلتف حول الكوكب الأرضى . لقد كان طرفها بالأمس فى بلاد الجليد، فإذا هى اليوم فى بلاد الشمس والهلال. لقد طفت بالمدينة فرأيت عجباً . لقد انقلبت القاهرة رأساً على عقب. أنوار وأعلام، وزينات وأفراح، والناس جميعاً مشغولون بإعداد سهرات العيد . الشرقيون قبل الغربيين يتسابقون إلى الاحتفال بعيد ليس عيدهم ، ولكنهم يريدون تقليد الأجانب . بل إنى لأعرف بيوتاً وأسراً شرقية مسلمة تقيم فى منازلها « شجرة الميلاد » أسوة بالأوربيين . نعم . لقد ذهبت أعياد الشرق فلم يعد أحد يأبه لعيد الأضحى أو الهجرة أو ليالى رمضان . إن أعيادنا تقبل علينا فلا نبسم لها ولا نخرج لاستقبالها . إنما نحبس أنفسنا فى بيوتنا كأننا نخجل منها ومن أنفسنا . فإذا جاءت أعياد الأجانب أسرعنا نخرجنا لها باشين مهللين . نحن فى بلادنا نشارك الأجنبى فى أعياده، وهو على أرضنا. لا يشارك فى أعيادنا . وبذلك أفهمناه وعلمنا آلنا وأطفالنا منذ الصغر ازدراء ما هو شرقى واحترام ما هو غربى . وهكذا أثبتنا للعالم أن مجرد وطء أقدام الأوربى أرضنا كاف أن يزلزل حصوننا المعنوية . نعم ما كان الغربى يتصور أن الشرق ينبذ من أجله حتى أفراحه التاريخية العريقة بألوانها الزاهية وطابعها الأصيل . إنى ليخيل إلى أن الغربى ذاته ، ذلك الضنين بتقاليده ، الحريص على تجميل خرافاته ، يدهش لرؤيته وجه الشرق قد انطمست ملامحه بهذه السهولة، وضاعت معالمه من الرؤوس والنفوس، وزال رسمه الحقيق إلا من تلك الصفحات الرائعات التى سطرها أمثال بيرلوتى وجيراردى نرفال من الأوربيين أنفسهم الذين أعجبوا بالشرق يوم كان الشرق يحتفظ برداء شخصيته فلا يخلعه ليجرى عارياً كالشحاذ خلف الغرب . إنى لم أر قط باعتنا المتجولين يصيحون « بعرائس مولد النبى » فى الطرقات ولكنهم صاحوا البارحة بنداء شق الفضاء : « الأب نويل بقرش ابيض ! الأب نويل بقرش ابيض ! » . وبهذا تم لذى اللحية البيضاء غزو الشرق

توفيق الحكيم